تولستوي

فقدت الحكمة عضواً عاملاً من دعاتها وعمدة ثقة من اعز انصارها ورجالها وانساناً كاملاً خدم الانسانية بفعاله واقواله ولوحظ ارباب التقاليد بحسن مثاله وراع قلوب اهل السلطة بقوته واقباله وغنى به فيلسوف روسيا واحد رجال الاخلاق في هذا العصر الكنت ليون نيكولا يفتش تولستوي الذي هز صيته ارجاء العالم المتمدن وأكبر رجال الاصلاح هول المصاب به

ولد هذا الحكيم في اياسنايا بوليانا من اعمال ولاية تولا الروسية سنة ١٨٢٨ فيتم من امه وهو ابن سنة ونصف وفقد اباه في العاشرة وهو من بيت وجاهة وغنى وكان جده سيء الادارة يميل الى البذخ والاسراف ففقد ثروته حتى اضطر الى التوظف بمثابة روسيا والاقتصاد وجاء ابنه والد تولستوي ولم يكن على شيء من المقال حتى العشرين من سنه[1] ورزق المال من مادة زوجه مما اهله للتخلي عن الوظائف وتزوج بوالدة تولستوي وكانت عليمة تحسن الروسية كتابة وقراءة كما تحسن الانكليزية والالمانية والافرنسية والايطالية والغناء والضرب على البيانو وكانت على جانب من حرية الفكر وسلامة الوجدان والسذاجة

واشتغل والد تولستوي بالزراعة في الاملاك الواسعة التي ورثها عن ابيه واتصلت اليه من زوجه وكان يحب المطالعة واقتنى مكتبة فيها شيء كثير من آداب الفرنسيس وكان من عادته ان لا يقتني كتاباً قبل ان يأتي على مطالعة ما اقتناه من قبل نشأ ليون تولستوي على اللغة الافرنسية وكان يفهم كتب الفيلسوفين الفرنسيين روسو وفولتير كما يفهم شعر بوشكين شاعر الروس واخذ الافرنسية عن استاذ فرنساوي اسمه سان توما ولم يبلغ الثامنة عشرة حتى كان عالماً بها وبآدابها

ربي في المذهب الارثوذكسي ولكن لم يكد يبلغ التاسعة عشرة من عمره حتى تجرد عن الاعتقاد بالكنيسة ولكنه عمد الى التقية فلم يكن يظهر ما اضمر وكان وهو طالب يقوم بالفروض والواجبات وغادر سنة ١٨٤٧ الكلية التي كان يدرس فيها ليلتحق بالفلاحين ويحسن اليهم الاحسان الجم وفي سنة ١٨٥١ سافر الى القفقاس حيث عين ضابطاً في المدفعية واشتهر ببسالته في حصار سواستبول فعين قائد فرقة وكان في خلال تلك المدة

---

(١) المقتبس م ٢ ص ٤٠١ ترجمة تولستوي لنفسه

قد نشر باكورة كتبه موقعة بالحروف الاولى من اسمه والسر اسرته ثم اقام في بطرسبرج مدة فكتب عدة مصنفات وقصص ثم ساح سنة ١٨٥٧ في المانيا وسويسرا وفرنسا وعاد الى روسيا بعد تحرير الفلاحين فانشأ في بلده مدرسة نموذجية للفلاحين وبحث في التربية والتعليم وعين قاضي صلح . وفي سنة ١٨٦٢ تزوج وطابت نفسه وحسن سلوكه ولم يكن من قبل كذلك [illegible] في آثاره وكانت كتبه التي كتبها لاول عهد زواجه احسن مؤلفاته وابعدها صيتاً واشهرها ذكراً وفي سنة ١٨٧٤ اخذ يتساءل عن معنى الحياة فصارت تبغض [illegible] ذلك الى ان هداه الله [illegible] حتى اذا كانت سنة ١٨٨٣ تعرف الى فلاحين كانا [illegible] متعصبين دينيين من [illegible] الرجوع الى العهد القديم على العهد الجديد وان اصلاح العالم لا يتم الا بالعمل اليدوي والتقشف . ومن ذلك الحين جاهد تولستوي نفسه [illegible] الى الفلاحين وترك جزءاً منها لاسرته كان يعمل فيه بنفسه [illegible] صغار الفلاحين [illegible] الحين لم يغادر بلده [illegible] الارض [illegible] وصار قصره مجمع العلماء والفضلاء . وفي ٢١ شباط ١٩٠١ حرمه المجمع المقدس الروسي تولستوي لآرائه وخروجه عن التعاليم الارثوذكسية وكانت الحكومة الروسية [illegible] فصارت تراقبه حتى كادت تحكم عليه [illegible] الى نفيه الى سيبيريا لولا ان لطف الله به [illegible] مجلس الامة

ويعتبر تولستوي من اقدر القصصيين الذين ظهروا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وقد اجاد في ذكر الماضي من حياة امته وفي وصف الروح الروسية والاخلاق الروسية وحسن [illegible] وجودة الخيال [illegible] ما هذه المزية يصور لك [illegible] كأنه [illegible] بل يصور الاشخاص من الطبقة الثانية والجمهور [illegible] تولستوي لاهوتياً تراه يحاول ان يقترب مما يراه انه النصرانية الاصلية . وتغلب الفلسفة الطبيعية [illegible] ان تولستوي [illegible] كل ممكن عن الشهوة . والجوهر في فلسفة حياته الجديدة في الطبيعة الصوفية والاخلاق [illegible] الاول وجماع القول في فلسفته [illegible] الشر . وقد ظهرت كتبه كلها في اللغة الروسية في [illegible] عشر مجلداً وترجم معظمها الى لغات اوربا الراقية وترجم بعضها الى العربية ولا سيما قصصه .

وهذا الدور الاخير في حياته هو الذي تمنى ان يموت عليه قال في ترجمة نفسه : لما ذكرت ما اتيت من شر وما تم على يدي من شر رأيتني اقسم ادوار حياتي الى بعد امرها الى اربعة ادوار : اولها وذلك الدور العجيب خصوصاً اذا قيس بالدور الذي يليه — الجهل البهيج الشعري واعني به دور الطفولية . ثم الدور الثاني وهو عشرون سنة كان فيه من الشر القبيح والخدمة والطمع بالمعالي وخصوصاً في المكاسب ما كان . ثم جاء الدور الثالث وهو ثماني عشرة سنة اي منذ تزوجت الى الشورى الروحي وهو الدور الذي يحق الآن بدعى في نظر العالم دور الاخلاق بحس اني عشت في هذه الثماني عشرة سنة كما تعيش الاسر بالحشمة والنظام غير مستسلم لمفسدة ينفرها الناس ولكن جميع مصالحي كانت مقصورة على مصالحي واسرتي عنايته مقرونة بحب الذات ممزوجة بالانانية وفي زيادة ثروتي ونيل نجاحي الادبي في عينية خلوطاً ذلك بقضي والدور الرابع يرد الى عشرين سنة التي اقضيها الآن واود ان اموت فيها وبها يظل في مالي الحياة الماضية من عظيم الخطر وهو الدور الذي لا ابغي سواه ما خلا التمادي الشر الذي اندمج في روحي في الادوار الاخيرة .

هذا مجمل من طفولية تولستوي وشبابه وكهولته وشيخوخته وقد نشأ فيه القيام على الظالمين ومعاهدة المستبدين من الرؤساء الدينيين والدنيويين مما اتقه عن حالته تأثيرا الكسندروفنا وكانت من النساء المهذبات محبته الحب والميل الى الوحدة والتأثر من المظالم كما يه روسو وتولستوي رحمة الاعتقاد المعروفة . ولكن تولستوي لم يتحرر كل التحرير من رق العبودية للمحيط والنشوء وبقيت فلسفته ترشح من صبابات النصرانية ومدارها الاخلاق الشرقية . ومرادات ادرا في هذه الفلسفة ما قام عمرانها واسسط سلطانها على مبادئ «السلام على الارض » و«جزاء سيئة سيئة مثلها» فحكمة تولستوي ليست كحكمة معلم النصارى الحكمة في الغرب اليوم مادية صرفة بل هي روحية ممزوجة بطرف من آداب النصرانية مختلطا بعقائد الشراكية متطرفة فهو لا يرى ان يملك الارض احد لانها لله ان الشرك وشأنها ينتفع بها عياله ويرى ان لا يعاقب المجرمون بالسجن بل ان يصفح عنهم الصفح الجميل ولا يعتقد بالوهية المسيح بل يرى انه انسان ذو مذهب هو خير المذاهب الناس ومن افكاره الاشتراكية بل الفوضوية ان احسن الطرق في الخلاص من ظلم الحكومات ان يمتنع الناس عن الخدمة العسكرية وعن اداء الضرائب وبذلك تضطر الحكومات الى اصلاح امرها

ومن تعاليم تولستوي الأدبية أن يبتعد المرء عن مغازلة النساء ويتخذ زوجة ثانيا وقالا ولا يهجرها لأن هجرها مفسدة وأي مفسدة وأن الواجب أن لا يفرق الانسان عن مواطنيه وأقربائه لأن الناس أبناء أب واحد وأم واحدة وان يسعى كل امرىء بإزالة عقدة المشاجرة بين البشر حتى يعيشوا بسلام . وله آراء في الفنون يقصر عنها لا يدركه علماء رجال الفن

ولقد حاول صاحب تولستوي قبيل وفاته ان يترك بيته وقال انا شاب وقلت عن مقاومة أسرته له في أمر خروجه كان يريد أن يخرج من بيته وعمر أن يحمل ريحه كنسبة مقوام الدهر وفقا لما لبثه من بريق وله في هذا الفكر اهل بيته ولا سيما زوجته الشهيرة بيعطيها لقاء تولستوي ذات يوم وراق خروجه إلى محطة الرسد مريضا وركب في الدرجة الثالثة من القطار ليساوي الفقراء ولكن كانت الركبة مكتظة بالركاب حتى لم يكن فيها محل يجلس فيه الشيخ فتمكن المرض من ذلك الشيخ المسكين فأراد ان ينتقل الى الدرجة الاولى ولكن الثانية فلم يصل إلى احدى المحطات حتى اشتد به المرض وارتفعت حرارته ثم اسلم الروح في غرفة مدير المحطة . وقال ان الفيلسوف كان يريد ان يلتحق بالعدد الاكبر ليبشر الى مرقده بحبه لله في شخصه ولكنه لا يكون في طريقه وتوفي ضمن ساعات كالعادة ساعات قليلة من وصوله

والاقرب الى الظن ان تولستوي عرف نفسه من الدنيا واحب العزلة عنها وعن اللذة والابهة في قصره وعن جشعه المحيطين بالغنم والحشمة الى ان اراد ان يعتزل الخير ويرفه عنه بين كتبه في الادارة فيما كتبه زوجته وكان منه ان عزم الى وجهة لا يعرف كيف يصل لولا ان حاله والتي تحب ان تلق الرئاسة وحسن مقتدرا من البشر وكل من يستطيع الى طريقه من الكفاح فالفلسفة السياسية من عيوب الارض ولا عجب اذا عدّه الناس مفخرا من مفاخرها جاد به الزمان وعده اهل الاخلاق والحكمة والاصلاح من اعظم من عملوا للادب النفسي واصلاح المجتمع الانساني